# المقام فى الدرس البلاغى

إعداد

الدكتورة / نجوى محمود صابر

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# المقام في الدرس البلاغي

الدكتورة / نجوى محمود صابر
كلية الاداب – جامعة الإسكندرية

تتردد عند البلاغيين عبارتان يعدهما واحد من كبار الباحثين المحدثين هو د. تمام حسان من جوامع الكلم في البلاغة العربية ، ويراهما تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات ، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات ، وهاتان العبارتان هما :"لكل مقام مقال" "ولكل كلمة مع صاحبتها مقام"(١)

ولعل أول ظهور للعبارة الأولى في التاريخ الأدبي عند العرب كان في بيت من شعر الحطيئة (ت٣٠هـ/٦٥٠م) قال فيه

تحنّن عليَّ هداك المليك  فإن لكل مقام مقالا(٢)

ومنذ ذلك الوقت أخذت هذه العبارة تتردد في الكتابات البلاغية ، ثم أضيفت إليها العبارة الأخرى ، ليكتمل بذلك عندهم نوعان من المقام : مقام اجتماعي – وهو يشمل المقام الثقافي الذي نراه نوعًا ثالثًا من أنواع المقام – ومقام لغوي . ونريد في هذا البحث أن نستجلي مفهوم المقام عند علمائنا القدماء محاولين أن نتبين حدوده ، ولم لم يصبح – على أهميته القصوى – مصطلحا بلاغيًا ، بل آثر عليه البلاغيون " مقتضى الحال "، وما العلاقة بين المقام ومقتضى الحال ؟ وهل يطابق مفهوم المقام عند البلاغيين القدماء المفهوم الذى صاغه مالينوفسكى فى مصطلحة الشهير Context of situation كما يحلو لكثير من الباحثين أن يقابله به ؟ ثم نحاول بعد ذلك أن نقف على جهود علمائنا فيما قدموه من حديث عن المقام الاجتماعى ، والمقام الثقافى ، والمقام اللغوى.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

## أولًا : مفهوم المقام عند القدماء

المقام عند القدماء عنصر في منظومة متكاملة من العناصر اللغوية، وغير اللغوية تجعل الكلام بليغًا ، وهذه المنظومة تتكون من العناصر الآتية :

١ – **المتكلم** : وليس المقصود به عندهم كل من نطق بكلام ، بل هو "الذي يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، و بين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا ، ولكل حالة من ذلك مقامًا حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات" (٣)

٢ – **السامع** : وهو عندهم العالم بجهات حسن الكلام ، البصير بها ، الراغب فيها ، الخبير بمواضعها ، الذي يوفي الإصغاء حقه ، ويهتز للكلام البليغ بأكمل ما يستحقه ، المعتقد أن المتكلم تعمد أن يورد كلامه على نسق بليغ عن علم منه ، وأن عليه أن يبذل الجهد ليطلع من كل تركيب على حاق معناه ، ويفطن إلى كل مواضع الحسن فيه ، بما له من فطرة سليمة ، وذكاء لماح . يقول السكاكي : "..... فإن جوهر الكلام البليغ مثله مثل الدرة الثمينة لا ترى درجتها تعلو ولا قيمتها تغلو ، ولا تشتري بثمنها ، ولا تجري في مساومتها على سننها ما لم يكن المستخرج لها بصيرًا بشأنها ، والراغب فيها خبيرًا بمكانها . وثمن الكلام أن يُوفَّي من أبلغ الإصغاء ، وأحسن الاستماع حقَّه ،وأن يُتلقى من القبول له والاهتزاز بأكمل ما استحقه ، ولا يقع ذلك ما لم يكن السامع عالمًا بجهات حسن الكلام ومعتقدًا بأن المتكلم تعمدها في تركيبه للكلام عن علم منه ، فإن السامع إذ جهلها لم يميز بينه وبين ما دونه ، وربما أنكره ، وكذلك إذا أساء بالمتكلم اعتقاده ربما نسبه في تركيبه ذاك إلى الخطأ ، وأنزل كلامه منزلة ما يليق به من الدرجة النازلة"(٤)

وظاهر من كلام السكاكي أن للسامع دورًا إيجابيًا يقوم على الاجتهاد في الإصغاء للرسالة والاستجابة لها ، وبذل الجهد للوصول إلى مراد المتكلم.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣ – **المقام** : وهو عندهم فيما نرى ثلاثة مقامات : مقام اجتماعي ، ومقام ثقافي ، ومقام لغوي ، والمقصود بالمقام الاجتماعي الموقف الذي يجمع المشاركين في الحدث الكلامي، وما يحيط به من ظروف وملابسات تحكمها الأعراف الاجتماعية ، والخصائص النفسية .

والمقصود بالمقام الثقافي ما يتصل بمعارف الإنسان عن العالم الذي يحيط به وما يرتبط بذلك من استخدام لغوي صحيح . والمقام اللغوي هو نظم الكلم على نحو مخصوص يأخذ بعضه برقاب بعض ، بحيث يكون لكل كلمة موضعها الذي يبرز جمالها ، ويجلو محاسنها .

يقول السكاكي :"لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية ، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ، ومقام المدح يباين مقام الذم ، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ، ومقام الجد في جميع ذلك يباين الهزل ، وكذا مقام الكلام ابتداءً يغاير مقام الكلام بناءً على الاستخبار أو الإنكار ، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار ، جميع ذلك معلوم لكل لبيب ، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي ، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر. ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام ، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام"(٥)

وهم على أن البصر بما يلائم هذه المقامات من ألفاظ وعبارات أس البلاغة وهو يحتاج إلى دربة ، ومرانة حتى تلين قناته ، وتنقاد شوارده : جاء في البيان والتبيين : "... ويقال إنهم لم يروا خطيبًا قط بلديا إلاّ وهو في أول تكلفه لتلك المقامات كان مستثقلا مستصلفا أيامَ رياضته كلها إلى أن يتوقح وتستجيب له المعاني ، ويتمكن من الألفاظ إلا شبيب بن شيبة فإنه كان قد ابتدأ بحلاوة ورشاقة ، وسهولة وعذوبة ، فلم يزل يزداد منها حتى صار في كل موقفٍ يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره"(٦)



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد التفت أيضًا قدامة ت ٣٣٧ إلى المعنى ذاته ، وناقش هذه القضية بالتفصيل مؤيدًا رأيه بنماذج شعرية رآها دالة على ما أتى به من رأي ، وقد مهد لذلك بقوله : "وقد ينبغي أن يُعلم أن مدائح الرجال ، وهي التي صمدنا للكلام في هذا الباب تنقسم بحسب الممدوحين من أصناف الناس في الارتفاع والاتضاع ، وضروب الصناعات ، والتبدي والتحضر، وإنه يحتاج إلى الوقوف على المعين بمدح كل قسم من هذه الأقسام"(٧)

ويؤكد أبو هلال العسكري ما سبق حين يقول : "ولا يكلَّم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، لأن ذلك جهل بالمقامات ، وما يصلح في كل واحد منهما ، وأحسن الذي قال : لكل مقامٍ مقال"(٨)

ويشرح ابن رشيق (ت ٤٧٣) سبيل الشعراء في مدح الملوك بقوله : "على الشاعر إذا مدح ملكا أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح ، وأن يجعل معانيه جزلة ، وألفاظه نقية ، غير مبتذلة سوقية، ويجتنب – مع ذلك – التقصير والتجاوز والتطويل . ورأيت عمل البحتري – إذا مدح الخليفة – كيف يُقلُّ الأبيات ، ويُبرز وجوه المعاني" وقيل إن البحتري٠ قد أوصى حفيده بقوله : "يا بُني إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة، فإنه يُنسى أولها ، ولا يحفظ آخرها"(٩)

كذلك يشير قدامة بن جعفر إلى ذلك حيث يقول : "الشاعر يحتاج إلى تعلم إصابة المعنى ، فعلى سبيل المثال ، ليس من إصابة المعنى أن يقال في كل شئ تركه الميت بأنه يبكى عليه ، لأن من ذلك ما إن قيل إنه بكى عليه لكان سيئة وعيبًا لاحقين له ، فمن ذلك مثلاً إن قال قائل في ميت : " بكتك الخيل إذ لم تجد لها فارسًا مثلك " كان مخطئًا لأن من شأن ما كان يوصف في حياته بكده إياه أن يذكر اغتباطه بموته ، وما كان في حياته يوصف بالإحسان إليه أن يذكر اغتمامه بوفاته"(١٠)

ويذهب ابن رشيق إلى القول كذلك بضرورة معرفة علم مقاصد القول، يقول : "فأول ما يحتاج إليه الشاعر – بعد الجد الذي هو الغاية ، وفيه وحده الكفاية – حسن التأتي والسياسة ، وعلم مقاصد القول ، فإن نسب ذل وخضع ، وإن مدح أطرى



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإن هجا أقل وأوجع ... وقد قيل: لكل مقام مقال ، وشعر الشاعر لنفسه ، وفي مراده ، وأمور ذاته ، من مزح وغزل ومكاتبة ، ومجون وخمرية ، وما أشبه ذلك غير شعره في قصائد الحفل التي يقوم بها بين السماطين ، يقبل منه في تلك عفو كلامه ، وما لم يتكلف له بالا ، ولا ألقى به ، ولا يقبل منه في هذه إلا ما كان محككا ، معاودا فيه النظر ، جيدا لا غث فيه ، ولا ساقط ولا قلق . وشعره للأمير والقائد غير شعره للوزير والكاتب ، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم من هذه الأنواع."(١١)

٤ - **الرسالة** : والمقصود بها التراكيب الصادرة عن البلغاء لا عمن سواهم ، لأن ما يصدر عن سواهم لا يعدو الدلالات الوضعية والنظم الذي يخرجه عن حكم التعبير(١٢) . ويرتفع شأنها في معارج الحسن والقبول أو ينحط بحسب مطابقتها لما يقتضيها من أحوال ومقامات(١٣) . وجاء في صحيفة بشر بن المعتمر : "والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال."(١٤) وقال الجاحظ : "وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميًا وساقطًا سوقيًا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبًا وحشيًا إلاّ أن يكون المتكلم بدويًا أعرابيًا ، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي ، وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات."(١٥) ويقول : "... إلا أنني أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني ، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ ، والشريف الكريم من المعاني."(١٦)

وجاء في كتاب البرهان في وجوه البيان لابن وهب : "ومما ينبغي للشاعر أن يلزمه فيما يقوله من الشعر ألا يخرج في وصف أحد ممن يرغب إليه أو يرهب منه أو يهجوه ، أو يمدحه ، أو يغازله ، أو يهازله عن المعنى الذي يليق به ويشاكله ، فلا يمدح الكاتب بالشجاعة ، ولا الفقيه بالكتابة ، ولا الأمير بغير حسن السياسة ، ولا



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يخاطب النساء بغير مخاطبتهن ، ولكن يمدح كل أحد بصناعته ، وبما فيه من فضيلته، ويهجوه برذيلته ، ومذموم خليقته ، ويغازل النساء بما يحسن من وصفهن ومداعبتهن، والشكوى إليهن، فإن في مفارقته هذه السبيل التي قد نهجناها ، وسلوكه غير هذه الطريق وضعًا للأشياء في غير موضعها ، وإذا وضعت الأشياء في غير مواضعها قصرت عن بلوغ أقصى مواقعها."(١٧)

ويطلب ابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ) إلى الشاعر أن يلائم بين الألفاظ فلا يخلط بين كلام حضري وبدوي ، وأن يلائم بين كلامه والسامعين الذين يخاطبهم ، يقول : "وكذلك الشاعر إذا أسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي الفصيح لم يخلط به الحضري المولد ، وإذا أتى بلفظة غريبة أتبعها أخواتها ،وكذلك إذا سهل ألفاظه لم يخلط بها الألفاظ الوحشية النافرة الصعبة القيادة ، ويقف على مراتب القول ، والوصف في فن بعد فن ، ويتعمد الصدق والوفق في تشبيهاته وحكاياته ، ويحضر لبه عند كل مخاطبة ووصف ، فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات ، ويتوقى حطها عن مراتبها ، وأن يخلطها بالعامة ، كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجات الملوك ، ويعد لكل معنى ما يليق به ، ولكل طبقة ما يشاكلها."(١٨)

وعلى الرغم من اعتراف القدماء والمحدثين بأهمية هذه العناصر في الدرس البلاغي فإن أيا منها لم يرق إلى رتبة المصطلح في الدرس البلاغي ، وخلت معجمات المصطلحات البلاغية التي وضعها المحدثون منها جميعًا .(١٩)

وعلى الرغم من أن مفهوم المقام ظل حاضرًا في الدرس البلاغي منذ بدايته حتى الآن، فقد آثر عليه البلاغيون المتأخرون "مقتضى الحال" ورفعوه إلى رتبة المصطلح ، وأرجعوا القيمة البلاغية إلى "مطابقة الكلام لمقتضى الحال".

يقول السكاكي: "وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به ، وهو الذي نسميه مقتضى الحال."(٢٠)

والحال بهذا المفهوم هو الموقف الاجتماعي ، وكل موقف يقتضي عندهم إيرادا للكلام على وجه مخصوص يلائمه ، ويليق به ، فالمدح مثلاً حال يقتضي إيراد الكلام



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على وجه الإطناب ، وذكاء المخاطب حال يقتضي إيراده على وجه الإيجاز ، فكل من المدح ، وذكاء المخاطب حال، وكل من الإطناب والإيجاز "مقتضى" فإذا طابق الكلام مقتضى الحال حاز شرف البلاغة ، وارتفع شأنه في معارجها."(٢١)

ويرد الكلام البليغ عندهم مطابقًا لما يقتضيه ظاهر الحال ، وقد أوضح السكاكي ذلك بقوله :"فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده من مؤكدات الحكم ... وإن كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه ، وكذا إن كان المقتضى ترك المسند ، فحسن الكلام وروده عاريًا عن ذكره ، وإن كان المقتضى إثباته مخصصًا بشئ من التخصيصات ، فحسن الكلام نظمه على الوجوه المناسبة من الاعتبارات المقدم ذكرها ، وكذا إن كان المقتضى عند انتظام الجملة مع أخرى فصلها أو وصلها والإيجاز معها أو الإطناب ... فحسن الكلام نظمه على الوجوه المناسبة من الاعتبارات المقدم ذكرها ، وكذا إن كان المقتضى عند انتظام الجملة مع أخرى فصلها أو وصلها ، والإيجاز معها أو الإطناب ... فحسن الكلام تأليفه مطابقًا لذلك."(٢٢)

وقد يأتي الكلام البليغ مطابقًا لما تقتضيه الحال من خروج على الظاهر . قال السكاكي :"ثم إنك ترى المفلقين السحرة في هذا الفن ينفثون الكلام لا على مقتضى الظاهر كثيرًا ،وذلك إذا أحلوا المحيط بفائدة الجملة الخبرية ،وبلازم فائدتها علما محل الخالي الذهن عن ذلك لاعتبارات خطابية مرجعها تجهيله بوجوه مختلفة".

ويقول "وهكذا قد يقيمون من لا يكون سائلاً مقام من يسأل ، فلا يميزون في صياغة التركيب للكلام بينهما ، وإنما يصبون لهما في قالب واحد ،إذ كانوا قدموا إليه ما يلوح مثله للنفس اليقظى بحكم ذلك الخبر فيتركها مستشرفة له استشراف الطالب المتحير يتميل بين إقدام للتلويح وإحجام لعدم التصريح ، فيخرجون الجملة إليه مصدرة بإن ، ويرون سلوك هذا الأسلوب في أمثال هذه المقامات من كمال البلاغة وإصابة المحز.."(٢٣)

ويظهر مما قدمناه من نصوص أن الحال قد يعني عندهم المقام ، وأن من الممكن أن يُقال إن ما يقتضيه الحال يساوي ما يقتضيه المقام ، لكنهم لم يقولوا قط بمقتضى المقام ، بل كان تعبيرهم دائمًا مقتضى الحال. ويبدو لي أن هناك فرقًا بين المفهومين يتمثل فيما يأتي :

١ – أن الحال عندهم قد يقتصر على حال المخاطب أو السامع ، وقد يشمل الموقف الاجتماعي ، ولا كذلك المقام ،فهو لا يقتصر على حال المخاطب أو السامع بل هو الموقف الاجتماعي الذي يكون بين المخاطب والسامع ، وتظهر فيه العلاقة بينهما ، وما يحيط به من ظروف وملابسات، وما يدخل فيه من معرفة بطبائع الناس وحقائق الأشياء .

٢ – أن الحال عندهم ظاهرة وباطنة ، ولكل منهما مقتضى . يقول صاحب مواهب الفتاح : "فمقتضى ظاهر الحال أخص من مقتضى الحال، لأن مقتضى الحال في الجملة يصدق بنوعين : بمقتضى ظاهره بألا يكون ثمَّ تنزيل شئ كغيره ، ومقتضى باطنه بأن يكون ثم تنزيل حال كغيره ، فظهر أن مقتضى الحال أعم مطلقًا من مقتضى الظاهر."(٢٤) ولم يؤثر عنهم أنهم قالوا بأن للمقام ظاهرًا وباطنًا ، أو أن الكلام قد يخرج عما يقتضيه ظاهر المقام .

٣ – أن المقام يشمل المقام الاجتماعي ، والمقام الثقافي، والمقام اللغوي وقد يقصد بالحال عندهم المقام الاجتماعي ، لكنهم لم يقولوا قط بالحال اللغوي.على أن من بين الباحثين المحدثين من ربط بين مفهوم المقام في الدرس البلاغي القديم ، ومفهوم سياق الحَال Context of situation عند مالينوفسكي ، وآثر أن يضعه مقابلاً عربيًا له . يقول د. تمام حسان:

" ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريبًا على زمانهم لأن الاعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسيين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة."(٢٥)



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويقول : "ولم يكن مالينوفسكي وهو يصوغ مصطلحه الشهير Context of Situation يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة فما فوقها."(٢٦)

فما سياق الحال عند مالينوفسكي ، وهل يطابق مفهومه له مفهوم المقام عند البلاغيين العرب ؟

لقد كان برونسلاو مالينوفسكي (١٨٨٤-١٩٤٢) أستاذًا لعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) في جامعة لندن ، وقد أتاحت له أبحاثه الميدانية في مجموعة من جزر الباسفيك تُسمى "تروبرياند" أن يعيش مع أهل هذه الجزر ، وأن يجيد لغتهم ، وقد كانوا قومًا بدائيين يعيشون على صيد الأسماك . وقد قام الرجل بأبحاثه الميدانية مستخدمًا لغتهم ، فلما أراد نقل جوانب هذه الثقافة إلى اللغة الإنجليزية ، وجد مشقة كبرى في أن ينقل إلى الإنجليزية النصوص الكثيرة التي جمعها من هذه اللغة على نحو لا لبس فيه ولا غموض ، إذ كانت ثقافة هؤلاء الناس تختلف اختلافًا بينًا عن ثقافة الغربيين(٢٧) ، فحاول أن يقدم ترجمة حرة واضحة مفهومة فوجدها لا تعبر عن شيء من لغة هؤلاء ولا ثقافتهم ، ثم عاد فقدم ثانية ترجمة حرفية تلتزم الأصل ، فجاءت غامضة غير مفهومة عند القارئ الإنجليزي، فلم يجد أمامه مفرًا من أن يزود النص المترجم بتعليقات مفصلة تضع النص في بيئته الطبيعية الحية . وأحس مالينوفسكي بالحاجة الملحة إلى مصطلح يشمل السياق اللغوي الملفوظ ويشمل أيضًا الموقف أو السياق غير اللغوي الذي قيل فيه النص ، فصاغ سنة ١٩٢٣ مصطلح سياق الحال Context of Situation ، لكنه عاد فرأى أن ذلك غير كاف، إذ لا بدَّ من إيضاح ما وراء ذلك من جوانب ثقافية ، فأضاف إلى سياق الحال مصطلحًا آخر هو سياق الثقافة Context of Culture ، ورأى أنهما معًا لازمان للفهم الصحيح للنصوص اللغوية.(٢٨)

على أن الرجل حين أوضح ضرورة الاعتماد على سياق الحال ، وسياق الثقافة للوقوف على المعنى ، كان يعتقد في البداية أننا لا نحتاج إلى ذلك إلاّ عند دراسة لغة ذات حضارة . وبعد مضي عشر سنوات اعترف بأنه كان مخطئًا ، وأن الوقوف على



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سياق الحال وسياق الثقافة لازم لفهم الإنجليزية ، أو أية لغة ذات حضارة لزومه لفهم أية لغة بدائية، وكل ما في الأمر أن السياقين الاجتماعي والثقافي في كل منهما مختلفان. فالقول بأن أية لغة ينبغي أن تفهم في إطار سياق الحال وسياق الثقافة اللذين تستخدم فيهما قول صحيح ينطبق على اللغات في كل مجتمع ، وفي أية مرحلة من مراحل التطور.(٢٩)

وقد خلص مالينوفسكي من ذلك إلى أن اللغة ليست ذاتية النظام، بمعنى أنه لا يمكن الوصول إلى المعنى بالاعتماد على نظامها اللغوي فحسب ، وإنما هي تعتمد اعتمادًا كاملاً على المجتمع الذي تستخدم فيه ، إذ هي تستخدم لتحقيق وظائف معينة ذات خصائص محددة في مواقف اجتماعية بعينها .

وقد كان لالتقاء فيرث بمالينوفسكي أثر كبير في صياغة نظرية فيرث اللغوية ، فقد وقف على ما قدمه مالينوفسكي من نظرات في دراسة اللغة ، واستطاع أن يستثمرها في وضع نظريته اللغوية ، وكان من أهم ما أفاد منه تصور مالينوفسكي لسياق الحال ، واستطاع فيرث أن يطور هذا المفهوم بحيث أصبح بنية نموذجية مجردة يجري عليها ما يتكرر من وقائع الاستخدام ، وهي تتألف من العناصر الآتية :

١ – المشاركون في الموقف ودور كل منهم فيه .

٢ – الحدث الذي يقوم به المشاركون ويشمل اللفظي وغير اللفظي .

٣ – العناصر الأخرى ذات الصلة بالموقف كالبيئة التي يجري فيها .

٤ – النتائج أو الآثار المترتبة على ما يقوله المشاركون في الموقف . وقد بنى فيرث على مفهومه للسياق مفهومه للمعنى ، فالمعنى عنده هو الوظيفة في السياق حالاً ومقالاً ، فالعبارة لا تكون عنده ذات معنى إلاّ إذا استعملت على نحو ملائم في سياق صحيح . وقد ذكر فيرث مثالاً من اللغة الإنجليزية هو Say when (قل : متى) ورأى أن هذا القول يفهم بطرائق متعددة بناءً على السياقات التي يقال فيها ،وليس من الممكن تحديد معناه إلاّ في سياق محدد .



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد ترددت هذه الأفكار والمفاهيم التي جاء بها فيرث في أبحاث تلميذيه النجيبين د. تمام حسان و د.كمال بشر ، وربطا بينها وبين مفهوم المقام ومقتضى الحال عند البلاغيين القدماء .(٣٠)

لكن من الواضح أن بين مفهوم المقام عند البلاغيين ومفهوم سياق الحال عند كل من مالينوفسكي وفيرث ومن سار على نهجهما من الباحثين العرب أوجهًا من الاتفاق والاختلاف . ولعل أهم جوانب الاتفاق أن كلا المفهومين يعتد بالموقفين الاجتماعي والثقافي كما يعتد بسياق المقال . أما أهم جوانب الاختلاف فإنها تتمثل في أن المفهوم الغربي يقوم على دراسة اللغة غير الأدبية ،وأن هذين الجانبين لازمان "لصحة الكلام" فالصحة عندهم صحتان : صحة داخلية تتمثل في التأليف بين عناصره اللغوية وفقًا لقواعد النظام اللغوي ، وصحة خارجية تتمثل في مطابقة هذا الكلام الصحيح داخليًا للموقف الاجتماعي الذي يقال فيه.(٣١)

أما المفهوم العربي فهو يتجاوز حدود الصحة اللغوية والاستخدام الوظيفي للغة إلى ما وراء ذلك من قيم جمالية ولذة فنية تأتي من التفطن إلى مواطن الحسن الناتجة عن صياغة الكلام على نحو مخصوص يطابق موقفًا اجتماعيًا يقتضيه ، وهم لذلك غير معنيين بالكلام الذي يحقق الوظائف العملية للاتصال بين الناس ، بل مجال دراستهم هو النصوص الأدبية نثرية كانت أم شعرية ، فضلاً عن أن المقام عندهم عنصر في منظومة بلاغية على حين أنه عند الغربيين لازم للصحة الكلامية .

**المقام الاجتماعي :**

عني البلاغيون والنقاد بالمقام الاجتماعي فأوردوا نماذج مما يطابق فيه الكلام المقام الاجتماعي ونماذج أخرى لا يطابق فيها المقام الاجتماعي، فآخذوا الشعراء عليها وكانت عنايتهم بالمقام الاجتماعي أكثر من عنايتهم بغيره ومن ثم كان لابد أن يتناسب حجم ما نكتبه عنه مع ما ورد عنه في المصادر العلمية . وقد لخص ابن طباطبا (ت ٣٢٢) كل هذا فيما ينبغي للشاعر أن يأتي به ، وما ينبغي عليه تجنبه ، يقول : "ينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره ، ومفتتح أقواله مما يتطير منه ، أو



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يستجفى من الكلام والمخاطبات ؛ كذكر البكاء ووصف إقفار الديار ، وتشتت الألف ، ونعي الشباب ، وذم الزمان لا سيما في القصائد التي تضمن المدائح أو التهاني ، وتستعمل هذه المعاني في المراثي ووصف الخطوب الحادثة ، فإن الكلام إذا كان مؤسسًا على هذا المثال تطير منه سامعه وإن كان يعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه دون الممدوح ،،،،وليجتنب في التشبيب من يوافق اسمها بعض نساء الممدوح من أمه أو قرابة أو غيرها،وكذلك ما يتصل بها سببه أو يتعلق به وهمه."(٣٢)

وسوف نورد الآن ما ذكروه من نماذج لم يطابق فيها الكلام المقام ،وما عابوه من ذلك، ثم نثني بنماذج مما رأوا أن الكلام فيها مطابق للمقام وما مدحوه من ذلك.

**أولا : ما لم يطابق فيه الكلام المقام :**

**١ – عدم مراعاة الذوق والكياسة :**

استهجن البلاغيون ما أسموه إساءة الأدب بالأدب(٣٣) ، أي استخدام الشعر فيما تعافه النفس ، ومثلوا له بوصف المتنبي أسيرًا في حضرة سيف الدولة بقوله :

فغدا أسيرا قد بللت ثيابه  بدمٍ ، وبل ببوله الأفخادا(٣٤)

وقوله في موقف آخر:

خَف الله واستر ذا الجمالَ ببرقع  فإن لحتَ حاضت في الخدور العواتق(٣٥)

جاء بذكر البول والحيض وهو ما لا يحسن وقوعه في مخاطبة الملوك والرؤساء بل لا يحسم وقوعه في أي شعرًا على الإطلاق لأنه ينافي الذوق العام .

وأنشد بعض الشعراء مدحًا في زبيدة ، وهي تسمع فقال :

تعطين من رجليك ما  تُعطى الأكفُّ من الرغاب

فوثب إليه الخدم يضربونه ، فمنعتهم ، وقالت : أراد خيرًا فأخطأه ، ومن أراد خيرًا فأخطأ أحب إلينا ممن أراد شرًا فأصاب ، ألم تسمع قولهم :

" شمالك أندى من يمين غيرك ، وقفاك أحسن من وجه غيرك " (٣٦)



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد أدركت زبيدة أن الشاعر غفل عن المقام فلم يدر أن مثل هذا الكلام فيه من ظلال المعاني ما يشينه ، ويشين من يمتدح به . وكذلك رأوا أنه ينبغي على الشاعر ألاَّ يذكر في التشبيب اسمًا بغيضًا مثل "بوزع" في قول جرير:

وتقول بوزعُ قد دببت على العصا  هلا هزئت بغيرنا يا بوزعُ(٣٧)

**٢ - عدم مراعاة المسافة الاجتماعية :**

لفت البلاغيون الشعراء إلى مراعاة المسافة الاجتماعية التي تقوم بينهم وبين الملوك والأمراء ، إذ لا يصح تجاوزها في شعرهم مع من يخاطبونهم ، وأخذوا على المتنبي رثاءه أخت سيف الدولة ، وتعزيته عنها بقوله :

وهل سمعت سلامًا لي ألم بها  فقد أطلتُ وما سلمتُ عن كثب(٣٨)

ويعيب عليه الثعالبي في هذا إزالة الحدود بين رثائه لأخت الأمير ، وبين ما يذكره مع خاصته ، وكان أبو بكر الخوارزمي يقول:"لو عزاني إنسان عن حرمة لي بمثل هذا لألحقته بها ، وضربت عنقه على قبرها."(٣٩) ورأى الصاحب أن مثل هذا المعنى يدل على فساد الحس ، وعلى سوء أدب النفس(٤٠). ومثل هذا المعنى في فساده وعدم مراعاته للمقام ما يخاطبُ به ملكًا في أمه بقوله :

بعيشكِ هل سلوتِ فإن قلبي  وإن جانبتُ أرضك غيرُ سالي(٤١)

فهذا الرثاء إنما يصح لبعض أهله ، لا لأم الأمير . ومن فساد المعنى وقصوره عن الوفاء بالغرض ، قول جرير يفخر بنفسه ، ويهجو بني الفدوكس من رهط الأخطل :

هذا ابنُ عمي في دمشقَ خليفة  لو شئتُ ساقكم إليّ قطينا

ونقلوا عن الخليفة قوله : لو كان قد قال : لو شاء ساقكم إليّ قطينا لسقتهم إليه(٤٢) .

لقد عيب قول جرير إذ جانبه الصواب في موضعين : أولهما قوله عن الخليفة : "ابن عمي" أما الثاني ففي قوله : لو شئت ساقكم ، ولم يقل: لو شاء(٤٣)



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومثله ما وقع فيه الأخطل من عدم مراعاة المقام الاجتماعي للخليفة عبد الملك حين قال له :

وقد نُصرتَ أميرَ المؤمنين بنا  لما أتاك ببطن الغوطةِ الخبر(٤٤)

فقال عبد الملك : بل الله أيدني .(٤٥) كذلك عابوا أن يمدح الملك ببعض ما يتجه في غيره من الرؤساء ، وإن كان فضيلة ، وذلك مثل قول البحتري يمدح المعتز بالله(٤٦)

لا العذل يردعه ولا التـــــــــعنيف عن كرم يَصدُه

أنكره عليه أبو العباس أحمد بن عبد الله وقال : من ذا يعنف الخليفة على الكرم أو يصده ؟ هذا بالهجاء أولى منه بالمدح.(٤٧)

وقد عيب على الأخطل قوله في عبد الملك بن مروان :

وقد جعل الله الخلافة منهم  لأبيضَ لا عاري الخوانِ ولا جدب

وقالوا : لو مدح بها حرسيا لعبد الملك لكان قد قصَّر به(٤٨)

وعابوا على الأحوص قوله للخليفة :

وأراك تفعل ما تقول ، وبعضهم  مَذِق الحديث يقول ما لا يفعلُ

فقالوا : إن الملوك لا تمدح بما يلزمها فعله كما تمدح العامة ، وإنما تمدح بالإغراق والتفضيل بما لا يتسع غيرهم لبذله"(٤٩)

واستثقل عبد الملك بن مروان تلك المواجهة التي ابتدأه بها جرير حين أنشده :

أتصحو أم فؤادك غيرُ صاح  عشيةَ همَّ صحبك بالرواح(٥٠)

فقال له عبد الملك : بل فؤادك يا ابن الفاعلة . وقد كان الشاعر يخاطب نفسه بيد أن استخدام الشاعر لضمير المخاطب أفضى إلى عدم تحسب المسافة القائمة بينهما، وإن لم يرم إلى ذلك، فتورط في عدم مراعاته مقام الخليفة ، وما قد ينعكس على نفسه من ظلال معان سلبية .

ومن ذلك قول البحتري في حَضرة أبي سعيد الثغري :

لك الويلُ من ليلٍ بطاءٍ أواخرُه  ووشك نوى حي تزمُّ أباعُره



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكره الثغري هذه المواجهة وهذا الابتداء بالقول : لك الويل فرد على البحتري بقوله : الويل لك و الحرَب[٥١]

ومما أخذ على الكميت قوله يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

فاعتتب القول من فؤادي والشـــ عر إلى مــن إليــه مُعتتب
إلى السراج المنيــر أحمــد لا يَعْدلني رغبــة ولا رهــب
عنه إلى غيره و لو رفــعَ النــ اس إلــيَّ العيــونَ وارتقبوا
وقيل أفرطتَ ، بل قصدتُ ، ولو عنفنــي القائلــون أو ثلبــوا
إليك يا خير من تضمنتِ الــ أرض ولو عاب قوليَ العيبُ
لجّ بتفضيــلك اللســان ولــو أكثرَ فيك الضجاجُ والصخبُ

ويذكر ابن رشيق أن عائبيه قالوا :" من هذا الذي يقول في مدح النبي صلى الله عليه وسلم أفرطت ، أو يعنفه أو يثلبه ، أو يعيبه حتى يكثر الضجاج والصخب ؟ وهذا كله خطأ منه ، وجهل بمواقع المدح ، وقال من احتج له : لم يرد النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما أراد عليا رضي الله عنه ، فورى عنه بذكر النبي خوفاً من بني أمية !![٥٢]

وكذلك عيب على حسان بن ثابت إضافته الرسول إلى غيره ، وفي هذا عدم مراعاة للمقام النبوي الشريف ، إذ يقول حسان :

أكرم بقوم رسولُ الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيعُ[٥٣]

كان يجب أن يقول : هم شيعة الرسول .

كيف لا يدنيك من أمل مَنْ رسول الله من نفره[٥٤]

إذ لم يراع المقام ؛ فالرسول أولى بأن يضاف إليه .

كذلك عيب ذو الرمة حينما استهل قصيدته البائية ، وقد دخل إلى عبد الملك بن مروان لأول مرة ، بقوله :

ما بال عينك منها الماءُ ينسكب كأنه من كُلَى مفريةٍ سرب[٥٥]



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فغضب عبد الملك لأنه قيل إن عينيه كانتا تسيلان ماء ، وقالوا إنه نحاه حتى عاد فعدّل من قوله ، وغيره إلى :

ما بال عيني منها الماء ينسكبُ .....

حتى أتى على آخرها ، فأجازه وأكرمه

وكذلك فعل أبو النجم ، وقد دخل على هشام بن عبد الملك ، وقال أمامه:

• والشمسُ قد صارت كعين الأحول •[٥٦]

فأمر بسحبه ، وكان هشام أحول .

**٣ – عدم مراعاة ما قد يُتطير منه :**

ومنه ما عابوه على الأخطل إذ وقف بين يدي عبد الملك قائلاً :

خفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوًى في صرفها غِيَرُ[٥٧]

فعاب عليه هذا المطلع وتطير منه ، وقال له : لا بل منك ، فعاد الأخطل وغيره إلى "فراحوا اليوم"

وعابوا على الشاعر أرطأة ، وقد جافاه الذوق ولحقته غفلة ، قوله في حضرة عبد الملك بن مروان :

رأيت المرءَ تأكله الليالي كأكل الأرض ساقطةَ الحديد

وما تبغي المنيةُ حين تأتي على نفس ابن آدم من مزيد

وأعلم أنها ستكُرُّ حتى تُوَفي نذرها بأبـــي الوليـــد[٥٨]

فارتاع عبد الملك ثم قال : بل توفي نذرها بك ! ويلك ، مالي ولك ؟

فقال أرطأة : لا ترع يا أمير المؤمنين ، إنما عنيت نفسي ، وكان أرطأة يكنى أبا الوليد .

وقد غضب الداعي على شاعره أبي مقاتل الضرير حين افتتح شعرا قال فيه :

*موعد أحبابك للفرقة غد *

فقال له : بل موعد أحبابك يا أعمى ، ولك المثل السوء[٥٩]

وقال أبو نواس بين يدي الفضل بن يحيى :



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أربعَ البلى إن الخشوعَ لبادي
عليك ، وإني لم أخنك ودادي

...ار منه الفضل ، فلما انتهى إلى قوله :

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم
بني برمكٍ من حاضرين وباد[٦٠]

...شكم تطيره ، وقيل : إنه لم يمض إلاَّ أسبوع واحد حتى نزلت بهم النازلة .

ومثله أو شبيه به ما فعله اسحق بن إبراهيم الموصلي حين استأذن في النشيد ...ل فرغ المعتصم من بناء قصره ، وقد جمع أهل بيته وأصحابه وأذن للموصلي ...ي النشيد فشدا بشعر ما سمع الناس أحسن منه في صفته وصفة المجلس ، غير أن ...وله كان نسيبا بالديار القديمة ، وبقية آثارها ، مما لا يناسب المقام الاجتماعي والمناسبة حيث احتشد القوم ابتهاجًا بالدار الجديدة ، قال :

يا دارُ غيّرك البلى فمحاك
يا ليت شعري ما الذي أبلاك

فتطير المعتصم ، وقيل إنه لم يلتق اثنان من الحضور مرة ثانية في هذا المجلس ، بل خرج المعتصم إلى سر من رأى ، وخرب القصر[٦١]

ولعل هذا من قبيل المصادفة المحضة ، ولكنه لا ينفي أنَّ غفلةً قد أصابت هؤلاء الشعراء والمنشدين ، ولم يراعوا ما قد يتطير منه السامع وهو أمر ينبغي أن يُراعَى في هذا المقام .

ومما أخذوه على الشعراء أيضا من عدم ملاءمة الكلام للمقـام ما أخذوه على الحرث ابن خالد المخزومي الذي يقول ،والمقام مقام عاشق تتشوق نفسه إلى الحبيبة ودیارها :.

إني وما نحروا غداة منى
عند الجمار تئودها العقـل

لو بدلت أعـلى منازلهـا
سفلاً ، وأصبح سفلها يعلو

فيكاد يعرفها الخبير بهـا
فيرده الإقـواء و المحـل

لعرفت مغناها بما ضمنت
مني الضلوعُ لأهلها قبـل[٦٢]

فهـذا ابـن عتـيق الناقد يقول لمن أشاد بهذا الشعر وبصاحبه : استر على صاحبك ولا تشـاهد المحاضر بمثل هذا ، أما تطير الحارث عليها حين قلب ربعها

فجعـــل عاليه سافله . وقال ابن سلام : "....فجعل سفله علوا ما بقي إلاّ أن يسأل الله لهـــا حجـــارة مـــن ســـجيل "[٦٣] فالشاعر هنا لم يراع المقام ولا الجو النفسي المليء بمشاعر الحب الذي لا تلائمه هذه الصور ، و لا هذه الإيحاءات .

ويذكر ابن رشيق أنّ الحذاق كرهوا أن تمدح الملوك بماجاء في قول موسى شهوات وروى لغيره :

ليس فيما بدا لنا منـــك عَيْبٌ  عابه الناسُ غيْرَ أنك فاني

أنت نعم المتاعُ لو كنت تبقى  غيرَ أن لا بقاء للإنســـان[٦٤]

وكان ابن رشيق قد ذكر أن سليمان بن عبد الملك خرج من الحمام وهو الخليفة يريد الصلاة ، ونظر في المرآة فأعجبه جماله ، وكان حسن الوجه ، فقال : أنا الملك الشاب ، ويروي (الفتى) فتلقته إحدى حظاياه ، فقال لها : كيف ترينني ، فتمثلت بالبيتين المتقدم ذكرهما ، فتطير بهما ورجع ، فحم فما بات إلا ميتا تلك الليلة."[٦٥]

ولا أشك في أنَّ هذه الرواية إن صحت فهي أيضًا من قبل المصادفة إلاّ أن ما يعنينا منها لا يتعدى الإشارة إلى ما قد يقوله الشعراء ويتطير منه المستمعون .

**٤ – عدم مراعاة القيم الاجتماعية السائدة :**

لفت البلاغيون إلى ضرورة الملاءمة بين الشعر والمواضعات الاجتماعية التي سادت في المجتمع ، فأخذوا على الشماخ قوله :

إذا بلّغتِني وحملتِ رحلي  عُرابة فاشرقى بدم الوتين

لم يراع هنا المقام الاجتماعي الذي يعلي من قيم الوفاء وحفظ العهود ، لقد أنال ناقته أسوأ مكافأة ، وقد حملته وشقت به ومعه حتى أوصلته إلى هدفه.[٦٦]

وطرفة أيضًا إذ يقول :

فإذا ما شربوها وانتشَوا  وهبوا كلَ أمون وطمر

لقد كان الكرم الأصيل من القيم الاجتماعية التي سادت في مجتمع العرب وحياتهم، أما هذا الكرم عند السكر فلا يُعد كرمًا أصيلاً[٦٧]



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا الأعشى يقصر عن بلوغ الغاية في المدح إذ يمدح ملكًا بأنه إنما يجود فقط بالماعون :

وما مزبدٌ من خليج الفرا ... ت جونٌ غواربه تلتطم ..

بأجود منـه بـماعونـه ... إذا مـا سماؤهم لم تغم(٦٨)

## هـ - عدم مراعاة المثل الأعلى :

ومن هذه القيم الاجتماعية أيضًا تطلع العرب إلى المثل الأعلى لكل شئ وإن خالف الحقيقة الواقعة ، فامرؤالقيس حين يصف فرسه عليه أن يبالغ في صفاته المثالية، وإن خالف واقع حاله ، ومن ثم عابوا على امرئ القيس وصفه شعر فرسه بأنه مسترسل على جبينها حين قال :

وأركب في الرَّوع خيفانة ... كسا جبينها شعرٌ منتشر(٦٩)

ومثله في القصور عن الوصول إلى الغايات كما ذكر ابن طباطبا قول الشماخ :

فللساقِ أُلهوبٌ وللسوط درَّةٌ ... وللزجر منه وقع أخرج مهذب

فقيل له : إن فرسا يحتاج إلى أن يستعان عليه بهذه الأشياء لغير جواد(٧٠)

وكذلك رأوا أن الشماخ قصَّر إذ قال :

بانت سعاد ففي العينين ملمول ... وكان في قصر من عهدها طول

إذ كان ينبغي أن يقول : وكان في طول من عهدها قصر(٧١)

وكذلك قول أبي ذؤيب :

لا يهنئ الواشين أن قد هجرتها ... وأظلم دوني ليلها ونهارها(٧٢)

كان ينبغي أن يقول : وأظلم دونها ليلي ونهاري

### *ثانيًا : ما استحسنه النقاد والبلاغيون*

وقد يكون من اللازم أن نورد الآن نماذج مما رأى البلاغيون الكلام فيها مطابقا للمقام وموافقا له ، ومن ذلك :



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

**١ – مراعاة المقام النفسي :**

التفت ابن سلام إلى أن عمر بن أبي ربيعة كان ذا صحبة حسنة ، ومخاطبة جميلة حين ابتعد عما يسبب الجفوة في المشاعر ، أو يخرج عن الأطر النفسية المتداولة بين الأحباء إذ قال :

سائلا الربع بالبُلَىِّ وقولا هجت شوقًا لي الغداة طويلاً

أين حيٌ حلوك إذ أنت محفو ف ، بهم أهلٌ أراك جميلاً

ورواية أخرى تقول :

أين حيٌ حلوك إذ أنت مسرو ر بهم تصحبُ الزمانَ الظليلا

قال : ساروا فأمعنوا واستقلوا وبكرهي لو استطعت سبيلا

سئمونا وما سئمنا مقاما واستحبوا دماثةً وسهولا(٧٣)

كذلك أوجبوا على الشاعر أن يتلطف إذا مر له معنى يستبشع اللفظ به، وعليه أن يعدل إلى الكناية عنه وأن يجلَّ المخاطب عن أن يستمع إلى ما يكرهه،وعليه أن يعدل عن كاف المخاطبة إلى ياء الإضافة إلى نفسه.(٧٤) كقول الشاعر :

ولا تحسبن الحزن يبقى فإنهشهابُ حريق واقدٌ ، ثم خامدُ

سألفُ فقدان الذي قد فقدته كإلفك وجدانَ الذي أنت واجدُ

"إنما أراد الشاعر : ستألف فقدان الذي قد فقدته كإلفك وجدان الذي قد وجدته ، أي تتعزى عن مصيبتك بالسلوّ ، فانظر إليه كيف لطف في إضافة ذكر المفقود الذي يتطير منه إلى نفسه ، وما يتفاعل إليه من الوجدان إلى المخاطب ، فجعل الموجود للمعزى والمفقود لنفسه"(٧٥)

**٢ – ما يجب على الشاعر في الغزل :**

يذكر قدامة في حديثه عن النسيب أنه مما " يوجب فيه أن يظهر الأدلة على التهالك في الصبابة ، وأن تتظاهر فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة وما كان فيه من التصابى والرقة أكثر مما يكون من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة أكثر



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مما يكون فيه من الإباء والعز، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ، ووافق الانحلال والرخاوة"(٧٦) مثل قول أبي صخر الهذلي :

ويمنعني من بعد إنكار ظلمها إذا ظلمت يومًا و إن كان لي عـذرُ

مخافة أني قد عرفتُ لأن بدا لي الهجرُ منها ما على هجرها صبر

وإني لا أدري إذا النفس أشرفتْ على هجرها مـا يفعلن بي الهجر(٧٧)

أو كما قال مجنون ليلى :

يود بأن يمسي سقيمًا لعلها إذا سمعت عنه بشكوى تراسله

ويهتز للمعروف في طلب العُلا لتُحمد يومًا عند ليلى شمائله(٧٨)

## ٢- إصابة وجوه المديح عند المديح :

أجمـع الـناس - كما يذكر ابن رشيق -على تفضيل قول كعب ابن زهير يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم لإصابته الوجه في المدح حين قال:

تحمله الناقة الأدماءُ معتجرا بالبرد كالبدر جَلىَّ ليلْةَ الظلَم

وفي عِطافيه أو أثناء رَيطتِه ما يعلمُ اللَه من دين ومن كرم(٧٩)

ولهـذا السـبب فضـلوا في مدح الملوك قول النابغة الذبياني في النعمان بن المنذر:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبـذب

فإنك شمس والملوك كواكبٌ إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

ومـثله قـول الحزين الكناني في عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وقد وفد عليه ، وهو عامل مصر(٨٠) :

لما وقفتُ عليه في الجموع ضحىً وقد تعرضت الحجاب و الخدم

حييتـه بسـلام وهـو مرتفـقٌ وضجة القوم عند الباب تزدحم

في كفه خيزران ريحها عبـقٌ في كفّ أروع في عرنينه شمم

يغضي حياءً ويغضي من مهابته فما يكلـم إلا حيـن يبتسـمُ



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومنه ما قاله ابن قيس الرقيات لمصعب بن الزبير :

يلبسُ الجيش بالجيوش ويسقي لبن البُخت في عساسِ الخلَنج(٨١)

ويرى ابن رشيق أنه وإن لم يعد ذكر القرى وسقي اللبن من ممادحة العرب ـ فقد زاده رتبة عرف بها أنه ملك .(٨٢)

ومنه مدح الفرزدق عبد الرحمن بن أبي الحكم بقوله :

وأنت ابن بطحاوَيْ قُريشٍ، وإن تشأ تكن من ثقيف سَيْلَ ذي خَدَرٍ غَمْرِ

وانت ابنُ سوَّار اليدين إلى العـلى تكفت بك الشمسُ المضيئةُ للبـدر

فأثنى عليه عبد الرحمن وأمر له بعشرة آلاف درهم.(٨٣)

ومدح أبو العتاهية عمر بن العلاء مولى عمرو بن حريث صاحب المهدي فأصاب المحز ، وأناله عمر سبعين ألف درهم مما أثار حفيظة الشعراء وغيرتهم إذ قال :

إني أمنتُ من الزمانِ ورَيبهِلما عَلِقْتُ منْ الأمير حبـالا

لو يستطيع الناسُ من إجلاله لَحَذوا له حُرَّ الخدودِ نـعـالا

إن المطايا تشتكيك ، لأنـها قطعت إليك سباسبا ورمـالا

فإذا وردن بنا وردن خفائفاً وإذا صدرن بنا صدرن ثقالا(٨٤)

ولعلـنا نرى أن الشاعر قد تجاوز في قوله " لَحَذوا له حُرَّ الخدودِ نعالا" فهذا ممـا ينافي الذوق السليم حتى وإن كان في مدح الملوك ، وأما أن يثاب عليه الشاعر فقد أثيب من الممدوح ، ولا أعتقد أن ناقدًا يقبل بهذا المعنى أو يثني عليه .

ومن أفضل ما مدح به الملوك وأكثره إصابة للغرض - فيما يرون - قول ابن هرمة للمنصور:

له لحظاتٌ عن حِفَافَيْ سريره إذا كرَّها فيها عقابٌ و نائـل

فأم الذي أمَّنتَ آمنة الـردى وأم الذي أوعدت بالُثكل ثاكل

وقول أبي العتاهية في مدح الهادي :

يضطرب الخوف والرجاءُ إذا حرّكَ موسى القضيب أو فكرا(٨٥)



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقول منصور النميري في مدح هارون الرشيد :

إن المكارم والمعروف أودية     أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت امرأ فالله رافعه     ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصمًا     فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن أخلف الغيثُ لم يُخلفْ أنامله     أو ضاق أمرٌ ذكرناه فيتسع(٨٦)

وقد زعم محمد بن وهب أنه قادر على أن يقول في المعتصم خيرًا مما قال منصور النميري في هارون وأنشد :

ثلاثةٌ تشرق الدنيا ببهجتهم     شمسُ الضحى ، وأبو اسحق والقمر
يحكي أفاعيله في كل نائلةٍ     الغيثُ والليثُ والصمصامة الذكر(٨٧)

فرضي المعتصم عنه وأحسن صلته.

فأما مدح ذوي الصناعات فيرى قدامة بن جعفر أن يمدح الوزير أوالكاتب بما يليقُ بالفكرة والروية وحسن التنفيذ والسياسة فإن انضاف إلى ذلك الوصف السرعة في إصابة الحزم والاستغناء بحضور الذهن عن الإبطاء لطلب الإصابة كان أحسن وأكمل للمدح ، كما قيل :

بديهته قبل تفكيره     متى رمته فهوَ مستجمعُ*(٨٧)

كذلك يُمدح بجودة النظر للخليفة والنيابة عنه في المعضلات بالرأي أو بالذات كما قال أبو نواس :

إذا نابه أمرٌ فإما كفيتهُ     وإما عليه بالكَفِّي تُشير(٨٨)

وأما مدح القائد فيراه قدامة فيما يجانس البأس والنجدة ، ويدخل في باب شدة البطش والبسالة فإن أضيف إلى ذلك المدح الجود والسماحة والتخرق في البذل والعطية كان المديح حسنًا والنعت تامًا ؛ إذ كان السخاءِ أخا الشجاعة، وكانا في أكثر الأمور موجودين في بعداءِ الهمم ، وأهل الإقدام والصولة ، وذلك كما قال بعض الشعراء في الجمع بين البأس والجود :

فتىً دهره شطران فيما ينوبه     ففي بأسه شطرٌ ، وفي جوده شطر



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فلا من بغاة الخير في عينه قذي ولا من زئير الحرب في أذنـــه وقر

أو كما قال بشار بن برد :

إذا أيقظتك حروب العدى فنبه لها عُمرا ثـــم نـــم

فتىً لا ينام على ثـــأره ولا يشرب الماء إلاّ بدم

وأما مدح السوقة من البدو والحاضرة فينقسم قسمين بحسب انقسام السوقة إلى أصحاب الحرف وضروب المكاسب ، وإلى الصعاليك والحراب والمتلصصة ، ومن جرى مجراهم ، فمدح القسم الأول يكون بما يضاهي الفضائل النفسيّة خاليًا من مثل مدح الملوك، ومن قدمنا ذكره من الوزراء والكتاب والقواد ، وذلك مثل قول الشاعر :

يتراحمون ذوي يسارهـــم يتعاطفون على ذوي الفقـــر

وذوو معاسرهـــم كأنـــهم من صدق عفتهم ذوو وفـــر

متحلمين لطيب خيمهـــم لا يهلعـــون لنبـــوة الدهـــر

ومدح القسم الثاني يكون بما يضاهي المذهب الذي يسلكه أهله من الإقدام والفتك والتشمير والجد والتيقظ والصبر مع التخرق والسماحة، وقلة الاكتراث للخطوب الملمة، كما قال تأبط شرا يمدح صخر بن مالك:

وإني لمهد من ثنائي فقاصدٌ به لابن عمٍّ الصدق صخر بن مالك

أهزُّ به في ندوة الحيِّ عطفه كما هزَّ عطفي بالهجـــان الأوارك

لطيف الحوايا يقسمُ الزادُ بينه سواء وبين الذئب قـــسم المـــشارك

كأن به في البرد أثناء حيـــةٍ بعيدُ الخطى شتى الهوى والمسالك[٨٩]

**٤ – إصابة المعنى في الرثاء :**

لقد استحسن البلاغيون ما قالت الخنساء عندما رثت أخاها صخرا فأصابت المعنى بقولها تذكر اغتباط حذفة (فرس أخيها) وسعادتها بموته:

فقد فقدتك حذفةُ فاستراحت فليت الخيلَ فارسُها يراها[٩٠]

فلو قالت فقدتك حذفة فبكت لأخطأت ، إذ يجب أن يبكي على الميت من كان يحتاج إليه في حياته ويعتمد على إحسانه وعطائه كما قال كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه :



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليبكك شيخٌ لم يجد من يعينه وطاوي الحشا نائي المزار غريب[٩١]

**ثالثاً : المقام الثقافي**

ويشمل ما يتصل بمعارف الإنسان عن العالم الذي يحيط به وما يرتبط بذلك من الاستخدام اللغوي الصحيح .

وقد أخذوا على الشاعر (المتلمس) تقصيره حين قال :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناجٍ عليه الصيعرية مكدم

فقد دلّ بهذا التناول للمعنى على ضعف ثقافته ، وعدم إدراكه لحقيقة الصيعرية وهي علامة للناقة لا للجمل[٩٢] فتهكم به بعض من سمعه وقال: استنوق الجمل وما كان ذلك إلا لنقص فـــي معرفة دلالات الألفاظ على مواضعات تعارف عليها الناس .

كذلك عاب نصيب على الكميت قوله :

إذا ما الهجارس غنينها يجاوبن بالفلوات الوبارا

قال نصيب : الفلوات لا تسكنها الوبار[٩٣]

وقول امرؤالقيس :

وأعددت للساقين والرجل والنسا لجاما وسرجا فوق أعوج مختال

واللجام لا يكون للساقين والرجل ، وإنما يكون للشدقين[٩٤]

وقال أبو النجم :

* تسبحُ أخراه ويطفو أوله *

واضطراب مآخير الفرس قبيح[٩٥]

وكقول امرئ القيس :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

والثريا لا تتعرض ، وإنما تتعرض الجوزاء[٩٦]

وقول رؤبة :



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنتم كمن أدخل في جحر يدا  فأخطأ الأفعى ولاقى الأسودا

فجعل الأفعى دون الأسود ، وهي أشد نكاية منه[٩٧]

وقول زهير :

* كأحمر عادٍ ثم ترضع فتفطم *

وإنما هي أحمر ثمود[٩٨]

وقول ليلى الأخيلية ، ويروي لحميد :

لما تخايلت الحمول حسبتها  دوما بأيلة ناعما مكموما

والدوم لا أكمام له.[٩٩] وكقول أبي ذؤيب في الدرة :

فجابها ما شئت من لطمية  يدور الفرات حولها ويموج

فالفرات هو العنب ، والدر لا يوجد إلاّ في الملح[١٠٠]

وكقول النابغة :

وكلُّ صموت نثلةٍ تُبَّعيةٍ  ونسجُ سُليم كلَّ قضَّاء ذائل

أراد "داود" فغلط إلى سليمان ، ثم حرفه إلى سليم[١٠١]

وكقول الآخر :

برية لم تأكل المرققا  ولم تذق من البقول الفستقا

جعل الفستق بقلا

وقد لحظ د. إحسان عباس أن قراءة الآمدي الدقيقة في شعر أبي تمام والبحتري قد هدته إلى الكشف عن كثير من الأخطاء في استعمال الألفاظ وكذلك في المعاني ، فمن ذلك تخطئته لأبي تمام في قوله :

حلت محل البكر من معطي وقد  زفت من المعطي زفاف الأيم

إذا قال : إن استعمال أبي تمام للأيم بمعنى الثيب خطأ في (مقابل البكر) قال : "وقد غلط في الأيم بعض كبار الفقهاء فجعلها مكان الثيب وذلك لحديث روي عن النبي. وهو خطأ قد وقع فيه البحتري ومن ذلك استعمال أبي تمام للفظة "العنس" بمعنى "العانس" ولم ترد في اللغة إذ العنس من أسماء الناقة"[١٠٢]



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ورأى البلاغيون أنه ينبغي على الشاعر أن يراعي المستوى الثقافي للطبقة التي يتحدث إليها ، فلكل لسان ينبغي التحدث به إليه ، فلا يكلم سيد القوم بلسان قومه ، ولا يكلم السادة بكلام السوقة ، لأن في هذا كما أشار أبو هلال العسكري جهل بالمقامات[١٠٣] فمن سوء الرأي وقلة العقل أن يُخاطب "السوقي والمملوك والأعجمي بألفاظ أهل نجد، ومعاني أهل السراة ، كأبي علقمة إذ قال لحجامة : اشدد قصب الملازم ، وأرهف ظُباة المشارط وأمر المسح ، واستنجل الرشح وخفف الوطء وعجل النزع... ، فقال له الحجام : ليس لي علم بالحروب"[١٠٤]

فمراعاة ثقافة المخاطب إذن ، وإدراك المتكلم لمنطقه وعلمه عند توجيه الحديث إليه أمر في غاية الأهمية ، وقد أكد الجاحظ هذا المعنى من قبل فرأى أن اللفظ لا ينبغي أن يكون عاميًا ولا ساقطًا سوقيًا، وكذلك لا ينبغي أن يكون وحشيًا إلاّ أن يكون المتكلم به بدويًا أو أعرابيًا.[١٠٥]

وقد ذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أراد أن يكتب إلى أهل فارس كان مدركًا لهذه الحقيقة ، فلم يأت إلاّ باللفظ السهل والمعنى البسيط : " من محمد رسول الله إلى كسرى أبرويز عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، فأدعوك بداعية الله فإني أنا رسول الله إلى الخلق كافة لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين ، اسلم تسلم فإن أبيت فأثم المجوس عليك "[١٠٦]

فسهل الرسول الكريم الألفاظ غاية التسهيل حتى لا يستغلق منها شئ على من له أقل علم ومعرفة باللغة العربية ، أما حينما أراد دعوة قومٍ من العرب فقد انتهت لغته إلى أعلى درجات الفصاحة تناسبًا مع ما عُرف عنهم من فصاحة . كتب رسول الله لوائل بن حجر الحضرمي يقول : "إلى الأقيال العباهلة من أهل حضرموت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة على التبعة الشاه والتيمة لصاحبها وفي السيوب الخُمس لا خِلاط ولا وراط ولا شناق ولا شغار ، ومن أجبى فقد أربى ، وكلُ مسكرٍ حرام "[١٠٧]

وذكر الجاحظ أن الله إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف ، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطًا وزاد في



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكلام [١٠٨] وقال إن البلغاء إذا خطبوا في صلح بين العشائر أطالوا ، وإذا أنشدوا الشعر بين السماطين في مديح الملوك أطالوا فالإطالة لها موضع، وليس ذلك عن عجز . وانتهى الجاحظ إلى أن الذي قـال :

"لكل مقام مقال" قد أصاب في القول .

وقد أشار البلاغيون إلى أن المقام الثقافي يقتضي طريقة مناسبة لصياغة المعنى ، يختلف بها عنه حين يرد في مقام آخر ، فيرى أبو هلال العسكري أن "ما يكتب عن السلطان في أمر الأموال وجبايتها واستخراجها، فسبيل الكلام أن يقدم فيها ذكر ما رآه السلطان في ذلك ، ثم يعقب بذكر الأمر بامتثاله ، ولا يقتصر على ذلك حتى يؤكد ويكرر لتأكد الحجة على المأمور به ،ويحذر مع ذلك من الإخلال والتقصير"[١٠٩]

هذا فيما يخص السلطان ، وما يكتبه إلى الرعية ، "أما ما يكتبه العمال إلى الأمراء ومن فوقهم ، فأمره مختلف ولا شك ، فلابد أن يتسم بالشرح والتطويل ، وتمام الاستقصاء ، وأن تستخدم فيه الألفاظ السهلة الواضحة ، دون تعقيد ، ودون استكراه للغة ، كذلك قد يلجأ العمال إلى استخدام شئ من الكناية أو التورية دون الإفصاح لما قد يكون في هذا من حماية من هتك عرض أو الإفصاح عن شئ تأدبًا مما لا يجب البوح به ، ولا يجب السكوت عنه"[١١٠]

وقد أشار الجاحظ ومن بعده أبو هلال العسكري إلى ما ذكره بشر بن المعتمر من ضرورة أن يعرف المتكلم "أقدار الكلام فيقسمها على أقدار المعاني ، وأن يعرف أقدار المعاني فيقسمها على أقدار المقامات ، وأن يقسم أقدار المقامات على أقدار السامعين فيجعل لكل طبقة من هؤلاء كلامًا ، ولكل حالة من ذلك مقامًا . فإن كان الخطيب من المتكلمين كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين ، " إذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحن وبها أشغف ، وأن كبار المتكلمين ورؤساء النظاريـن كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء . وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني".



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويؤكد أبو هلال على أن المنفعة مع موافقة الحال[١١١] وما يجب لكل مقام من المقال ؛ ولهذا لايجوز أن يخاطب غير المتكلمين بخطاب المتكلمين، وقد أثار سخرية الناس من وقف يخطب فيهم مستعملا ألفاظ المتكلمين واصطلاحاتهم: إن الله أنشأ الخلق وسواهم ، ومكنهم ثم لاشاهم.

ومثله قول الشاعر :

نور تبين فيه لاهوتية  فيكاد يعلم علم ما لن يعلما[١١٢]

أيضًا لابد أن يعي الشاعر طبيعة المعاني التي يوردها قاصدًا بها مخاطبًا ما أو متحدثًا بها عن معنى ما من المعاني فمن المعاني ما يجمل ويحسن لشيء ، ولا يكون كذلك لشيء آخر ، ولذلك أخذوا على الشاعر القطامي قوله يصف النوق :

يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة  ولا الصدور على الأعجاز تتكلُ

وقالوا إن المعنى جيد لو كان قد استخدمه الشاعر في وصف النساء[١١٣]

وقد أشار ابن طباطبا إلى هذا الشاهد نفسه ، وعلق عليه بقوله:"المعرض الحسن الذي ابتذل على ما لا يشاكله من المعاني"[١١٤]

ومثله قول كثير عزة :

فقلت لها يا عزّ كل مصيبة  إذا وطنت يوما لها النفس ذلت

قال ابن طباطبا : إن كثيرا لو جعل هذا المعنى في وصف الحرب لكان أشعر الناس[١١٥] . ولعلي لا أوافق ابن طباطبا في رأيه هذا لأنه يهدر بهذا الحكم خصوصية التجربة الشعرية عند الشاعر ، ويعرض عن ملمحًا هام وهو أن الشاعر يعبر في عمله عن شعوره الذاتي وتجربته ، فكيف يطلب من كثير أن يغير إحساسه من حديث يبثه (لعزة) عما يستشعره نحوها ، إلى تجربة عامة عن الحرب .

ومثله مما قيل في غير مناسبته ، ووضع في غير موضعه ، قول كثير في عزة أيضًا:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة  إلينا ولا مقلية إن تقلت

قال ابن طباطبا : لو كان هذا المعنى في وصف الدنيا لكان أفضل[١١٦].



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولمـــاذا يفضل ابن طباطبا استخدام هذا المعنى في وصف الدنيا ؟ ومن الذي بقـــادرٍ علـــى مثل هذا الحكم الجازم ! وعلى أية أدلة قد استند ابن طباطبا؟ أحسبه قد تجـــاوز فـــي حكمه هذا ، وإن كان المعنى يصح وصفًا للدنيا ولأحوالها ، فهو لا يقل صحة وجمالاً في استخدام الشاعر له .

وكما رفض البلاغيون والنقاد تلك الابتداءات الشعرية التي تدعو إلى التشاؤم والتطير وتجافي الذوق السليم ، رفضوا على هذا المستوى الابتداءات التي تستغلق فيها المعاني ، من مثل قول أبي تمام مبتدئًا قصيدته :

قدك اتئب أربيت في الغلواء  كم تعذلون وأنتم سجرائي(١١٧)

ولم يقبل منه أيضًا أن يمتدح أبا العباس عبد الله بن ظاهر بقصيدة مطلعها:

هن عوادي يوسف وصواحبه  فعزما فقدما أدرك الثأر طالبه

وعيبت بأن أول بيت فيها نصفه مخروم ، والنصف الثاني عويص(١١٨)

***ثالثًا : المقام اللغوي***

وهو ، كما أسلفنا ، نظم الكلم على نحو مخصوص ، وقد عُني البلاغيون بفكرة المقام اللغوي و كانت أدق ما عرض له عبد القاهر وهي تمثل ركنًا ركينًا في طريقة النظم ، فقد أثبت عبد القاهر أن المزية والفضل يكونان من خلال ملاءمة اللفظ للفظ السابق له ، وللفظ الذي يليه، والدليل على هذا أن هناك ألفاظًا مفردة تراها حيادية لا تروق ولا تفزع ، فإذا انضمت إلى لفظة أخرى اكتسبت إحدى الصفتين إما جمالاً وحسنًا وأما بشاعة وقبحًا .

يقـــول عبد القاهر :"فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخبارا وأمرا ونهيا واستخبارا وتعجبا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها ألاّ بضم كلمة إلى كلمة ، وبناء لفظـــة على لفظـــة هـــل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هـــذه أدل علـــى معناها الذي وضعت له من صاحبتها على ما هي موسومة به ، حتى يقـــال إن "رجـــلاً" أدلُ علـــى معناه من "فرس " على ما سُمِّي به وحتى يتصور في



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاسمين يوضعان لشئ واحد ، أن يكون هذا أحسنَ نبأ عنه وأبينَ كشفا عن صورته من الآخر ...وهل يقع في وهمٍ وإن جَهدَ ، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان ، من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشية ، أو أنْ تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن ومما يكدُ اللسان أبعد ؟

وهل تجد أحدا يقول " هذه اللفظة فصيحة إلاّ وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحُسنَ ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: لفظة متمكنة ، ومقبولة وفي خلافه : قلقة ، ونابية ومستكرهة إلاّ وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلَقْ بالثانية في معناها ، وأنّ السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية في مؤادها؟"(١١٩)

ثم يستشهد على صحة كلامه بقوله تعالى :

(وقيل يا أرضُ ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء وقضى الأمر ، واستوت على الجودى وقيل بُعدا للقوم الظالمين)

ويذهب في تعليل جمال الآية وروعة أدائها للمعنى إلى ارتباط الكلم فيها بعضه ببعض ، أو كما قال :"إن الفضل تناتج ما بينها وحصل من مجموعها"(١٢٠)

وهذا واضح من بدء الآية وحتى انتهائها ، مبدأ العظمة كما شرح عبد القاهر في نداء الأرض باستخدام يا دون (أي) فهذا يدل على شمول النداء للقريب والبعيد ، وإضافة الماء إلى الكاف ، أي ابلعي هذا الماء الذي يخصك من الطوفان فقط ، وإلاّ لابتلعت مياه الأنهار والبحار ثم نداء السماء بما يتلاءم معها (أقلعي) أي كفي عن إنزال المزيد ، وغيض الماء أي لم يغض إلا بأمر آمر وبقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى "وقضى الأمر" ، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو : "استوت على الجودى" ثم إضمار السفينة قبل الذكر بما يدل على عظم شأنها وفي النهاية مقابلة قيل الأخيرة بقيل الأولى.(١٢١)



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويقدم عبد القاهر مثالاً آخر كلمة "الأخدع" فيراها حسنة في مواقع وسيئة في مواقع أخرى ، فهي حسنة في قول الشاعر :

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعتُ من الإصغاء ليتا وأخدعا(١٢٢)

حيث استطاع الشاعر أن يوظف الكلمة توظيفًا جميلاً خدم المعنى ، وهي حسنة كذلك في بيت البحتري :

وإني وإن بلغتني شرف الغنى وأعتقتُ من رق المطامع أخدعي(١٢٣)

وقد اكتسبت جمالها من السياق العام للبيت ، وارتباطها التام بالمعنى حيث أتى بها مجازًا مرسلاً علاقته الجزئية ، ثم نراها نفسها مستبشعة في قول أبي تمام :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك(١٢٤)

فموقعها من السياق هنا أعطاها ثقلاً ، وغثاثة ، وقبحا لا يخفى فتوظيف الكلمة لم يخدم المعنى ، فلا علاقة بين أن يقوم الدهر أخدعاه-وهما عرقان في الرقبة- وبين أن يكف عن طيشه ونزقه ، فأعوجاج أخدعي الدهر-كما في الاستعارة- يعني الزهو والكبر وتصعير الخد ، وقد وظف الفرزدق هذه اللفظة (الأخادع) توظيفًا حسنًا مناسبًا في قوله :

وكنا إذا ما صعر الجبار خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع

ولفظة (الشيء) شاهد آخر عنده إذ يراها مقبولة حسنة في موضع وضعيفة مستكرهة في موضع آخر. فهي في قول عمر بن أبي ربيعة :

ومِنْ مالِئٍ عينيه من شئ غيره إذا راح نحو الجَمرةِ البيضُ كالدُّمى(١٢٥)

وقول أبي حية :

إذا ما تقاضى المرءَ يومٌ وليلةٌ تقاضاه شيءٌ لا يَمَلُّ التقاضيا(١٢٦)

يرى لها عبد القاهر – ونحن معه – حسنا وقبولا في الموضعين السابقين، ثم يوردها هي نفسها وقد ذهب جمالها وفقدت بهاءها ورونقها في بيت المتنبي :

لو الفلك الدوّارُ أبْغَضَت سعيه لعوقه شيء عن الدورانِ(١٢٧)



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويقدم عبد القاهر تلك الأبيات المشهورة التي عابها بعض النقاد ورأوا أن لا فائدة من ورائها[١٢٨] مبينا ما فيها من الروعة والجمال الناتجين عن تلاؤم الألفاظ وتساوق النظم :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دُهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح[١٢٩]

يقول : وذلك أن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه قال : "ولما قضينا من منى كل حاجة" معبرا عن قضاء المناسك بأجمعها والخروج من فروضها وسننها، من طريق أمكنه أن يُقصِّر معه اللفظ ، وهو طريق العموم ، ثم نبه بقوله :"ومسح بالأركان من هو ماسح" على طواف الوداع الذي هو آخر الأمر .. ثم قال :"أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا" فوصل بذكر مسح الأركان ، ما وليه من زم الركاب وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة "الأطراف" على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر من التصرف في فنون القول وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتطرفين ، من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء ، ... ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة ... وأخبر بعد بسرعة السير ... ، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح ، وكان في ذلك ما يؤكد ما قبله ..... ثم قال : بأعناق المطى ولم يقل بالمطى لأن السرعة والبطء يظهران غالبًا في أعناقها ...

فقل الآن .: " هل بقيت عليك حسنة تُحيلُ فيها على لفظة من ألفاظها حتى لن فضل تلك الحسنة يبقى لتلك اللفظة لو ذُكرت على الانفراد وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه وتأليفه وترصيفه ،

وحتى تكون في ذلك كالجوهرة التي ازدادت حُسنًا بمصاحبة أخواتها ، واكتست بهاءً بمضامة أترابها."[١٣٠]

ولقد عُني كذلك ابن الأثير بهذه القضية ورأى أن مزية الألفاظ من تضامها بعضها إلى بعض ، وأكد رأي عبد القاهر في تغير قيمة الكلمة بتغير موقعها ودورها



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فـــي المعنى الذي تؤديه ، واستدل على ذلك بعرضه للفظة "يؤذي" في عدة سياقات ، وكانت لها القوة والجمال في مكان ولها القبح والغثاثة في موضع آخر ، ففي قوله عز وجل :

"فـــإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق"

أدت كلمة "يؤذي" المعنى المطلوب في يُسر وبراعة من خلال سياق متماسك جيد ، وظُفت فيه الكلمة أحسن توظيف . وهي ذاتها في غاية السخف والرداءة عندما نقرأها في بيت شعر للمتنبي يقول فيه :

تلذُ له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يَلَذُ له الغرام

فقـــد جاء بها المتنبي منقطعة ، غير متلائمة مع المعنى ، ولا متلائمة مع ما يأتي بعدها.(١٣١)

وبعـــد ، فلعلي أكون بهذا البحث قد جلوت مفهوم المقام في الدرس البلاغي ، وبينت أهميـــته ، وأبرزت مكانه ومكانته في منظومة البلاغة العربية ، وأزلت اللبس بينه وبين بعض المصطلحات البلاغية واللغوية الأخرى ، وبينت من خلال ما أوردته من نصوص أدبية كيف استطاع البلاغيون أن يدركوا أنواعه ، وأن يتخذوا منه وسيلة منضبطة للحكم على النصوص بالجودة والرداءة ، وتلقيها بالقبول أو الرفض ، ومن ثم فهو حري بالعناية بـــه مصطلحا بلاغيا أصيلا ينبغي ألا تخلو منه معجمات المصطلحات البلاغية ، وقيمة بلاغـــية بـــرع علماؤنا في تقدير دورها واستثمارها في تحليل النص الأدبي وتقويمه . والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# الهوامش

( ١ ) د. تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ( القاهرة ١٩٧٣ ) ص ٣٧٢

( ٢ ) د. أحمد مطلوب :معجم المصطلحات البلاغية وتطورها.( بيروت ١٩٩٦ ) ص ٦٤٢

( ٣ ) الجاحظ :البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون(القاهرة ١٩٧٥) ١/١٣٨-١٣٩

( ٤ ) السكاكي : مفتاح العلوم (القاهرة ١٩٣٧) ١٠٨-١٠٩

( ٥ ) السكاكي: مفتاح العلوم ص ٨٠

( ٦ ) البيان والتبيين : ١/١١٢-ص ١١٣

( ٧ ) قدامة بن جعفر : نقد الشعر. شرحه: محمد عيسى منون (القاهرة ١٩٣٤) ص ٤٨

( ٨ ) أبو هلال العسكري : كتـــاب الصـــناعتين. تحقيق علي محمد البجاوي (بيروت ١٩٨٦) ص ٢٧

( ٩ ) ابن رشيق : العمدة. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت ١٩٧٢) ج٢ ص ١٢٨

(١٠) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ٦٠

(١١) ابن رشيق العمدة ج١ص ١٩٩

(١٢) السكاكي : مفتاح العلوم ص ٧٧ – ص ٧٨

(١٣) السابق نفسه ص ٨٠

(١٤) البيان والتبيين ١/١٣٦

(١٥) السابق ١/١٤٤

(١٦) السابق نفسه ١/١٤٥

(١٧) ابن وهب: البرهان في وجوه البيان ( وهو المنسوب خطأ إلى قدامة بن جعفر بعنوان نقد النثر تحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي القاهرة ١٩٣٣ ص٧٧ )



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(١٨) ابن طباطبا : عيار الشعر. تحقيق: طه الحاجري (القاهرة ١٩٥٦) ص ٦

(١٩) انظر على سبيل المثال : د. أحمد مطلوب : معجم المصطلحات البلاغية. (بيروت ١٩٩٦) ود. بدوي طبانة: معجم البلاغة العربية. (جدة والرياض ١٩٨٨)

(٢٠) السكاكي : مفتاح العلوم ص ٨٠

(٢١) د. بدوي طبانة : معجم المصطلحات البلاغية ص ٥٤٨

(٢٢) السكاكي : مفتاح العلوم ص ٨٠ - ٨١

(٢٣) السكاكي : مفتاح العلوم ص ٨٢

(٢٤) ابن يعقوب المغربي : مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح. في : شروح التلخيص. نشر أدب الحوزة د . ت. ج١ ص٢٠٨-٢٠٩

(٢٥) د. تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٣٣٧

(٢٦) السابق ص ٣٧٢ وانظر د. كمال بشر : علم اللغة الاجتماعي (القاهرة ١٩٩٥) ص ٩٦

(27) Halliday, M.A.K & Hassan, R.(1990) : Language in Social-Semiotic Perspective. Oxford p. 5f

(28) Ibid

(29) Ibid

(٣٠) انظر : د. تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص٣٣٧ فما بعدها ، د. كمال بشر : علم اللغة الاجتماعي – مدخل ص٩٦ فما بعدها

(٣١) د. كمال بشر: فن الكلام ص١٢٦ فما بعدها

(٣٢) ابن طباطبا عيار الشعر ص ١٢٢ ، ص ١٢٣

(٣٣) الثعالبي : يتيمة الدهر (بيروت د . ت) ج١ ص ١٦٧

(٣٤) السابق

(٣٥) السابق

(٣٦) الثعالبي وانظر ابن طباطبا عيار الشعر ص ٩٢

(٣٧) الصناعتين ص ١٥٢



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٣٨) الثعالبي : يتيمة الدهر ص ١٦٨

(٣٩) السابق

(٤٠) السابق نفسه

(٤١) الثعالبي : يتيمة الدهر ص ١٦٨

(٤٢) انظر ابن طباطبا عيار الشعر ص ٩٢

(٤٣) المرزباني : الموشح. تحقيق: علي محمد البجاوي (القاهرة د . ت) ص ١٦٥

(٤٤) السابق ص ١٩٣

(٤٥) السابق نفسه

(٤٦) ابن رشيق : العمدة ج٢ ص ١٢٩

(٤٧) السابق

(٤٨) السابق نفسه

(٤٩) السابق ص ١٣٠

(٥٠) المرزباني :الموشح ص ٣٠٤ ، ابن رشيق : العمدة ص ٢٢٢

(٥١) ابن طباطبا : عيار الشعر ص ١٢٣

(٥٢) ابن رشيق : العمدة ج٢ ص ١٤٣

(٥٣) المرزباني : الموشح ص ٨٠ وانظر ابن طباطبا عيار الشعر ص ٩٥

(٥٤) المرزباني : الموشح ص ٨٠

(٥٥) ابن طباطبا : عيار الشعر ص ١٢٢ ، المرزباني : الموشح ص ٣٠٢ ، ص ٣٠٣

(٥٦) المرزباني :الموشح ص ٣٠٢

(٥٧) السابق ص ١٩٣ ، ص ٣٠٣

(٥٨) الموشح ص ٣٠٤ ،الصناعتين ص ١٤٦،ابن طباطبا عيار الشعر ص ١٢٣

(٥٩) السكاكي : مفتاح العلوم ص ٣٢٤

(٦٠) المرزباني : الموشح ص ٣٣٩ ، أبوهلال العسكري : كتاب الصناعتين ص



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٤٦، ابن طباطبا : عيار الشعر ص ١٢٢

(٦١) الموشح ص ٣٧٠

(٦٢) السابق ص ٢٦٩

(٦٣) السابق نفسه ص ٢٧٠

(٦٤) ابن رشيق: العمدة ص ١٣٦

(٦٥) السابق ص ١٣٦ج٢

(٦٦) د. إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب (بيروت ١٩٨٦) ص ٤٥

(٦٧) السابق ص ٤٥

(٦٨) ابن طباطبا : عيار الشعر ص ٩٧

(٦٩) السابق ص ٩٩

(٧٠) السابق نفسه ص ٩٦

(٧١) ابن طباطبا : عيار الشعر ص ٩٧

(٧٢) السابق نفسه ص ٩٨

(٧٣) الموشح ص ٢٧٠

(٧٤) ابن طباطبا عيار الشعر ص ١٢٣

(٧٥) السابق ص ١٢٢-١٢٣

(٧٦) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ٧٣-٧٤

(٧٧) السابق

(٧٨) السابق

(٧٩) ابن رشيق: العمدة ج٢ص ١٣٦

(٨٠) ابن رشيق : العمدة ج٢ ص١٣٨

(٨١) السابق ص ١٣٩

(٨٢) السابق

(٨٣) السابق نفسه



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٨٤) ابن رشيق: العمدة ج٢ ص ١٣٣

(٨٥) السابق ص ١٣٨

(٨٦) السابق ص ١٣٩

(٨٧) السابق نفسه ص١٣٩

(٨٧) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ٥٠

(٨٨) ابن رشيق العمدة ج٢ ص ٧٣

(٨٩) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ٤٨ فما بعدها ، وانظرابن رشيق العمدة ج ٢ ص ١٢٩، ص١٣٤-١٣٥

(٩٠) قدامة : نقد الشعر ص ٦٠

(٩١) السابق

(٩٢) الموشح ص ٩٨-١١٧ ، وانظر ابن طباطبا: عيار الشعر ص ٩٦.

(٩٣) الموشح ص ٢١٨، ص٢٥١

(٩٤) القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ص١٠

(٩٥) السابق ، وانظر ابن طباطبا : عيار الشعر ص٩٧

(٩٦) المرزباني : الموشح ص ٢٥١

(٩٧) السابق نفسه

(٩٨) القاضي الجرجاني :الوساطة ص ١٤

(٩٩) السابق

(١٠٠) القاضي الجرجاني :الوساطة ص ١٥

(١٠١) القاضي الجرجاني : الوساطة ص١٤

(١٠٢) د. إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٧٨

(١٠٣) أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ص ٢٧

(١٠٤) السابق



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(١٠٥) ابن رشيق :العمدة ج١ ص١٣٣

(١٠٦) أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ص ١٥٤ ، ص ١٥٥

(١٠٧) السابق

(١٠٨) الجاحظ :الحيوان. تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة ١٩٣٨) ج١ ص ٩٤

(١٠٩) أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ص ١٥٦

(١١٠) السابق

(١١١) السابق ص١٣٥

(١١٢) أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ص١٣٦ وانظر الجاحظ : البيان والتبيين ج١ ص ١٣٨-١٣٩

(١١٣) أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ص ١٤٦

(١١٤) ابن طباطبا :عيار الشعر ص ٨٤

(١١٥) السابق

(١١٦) ابن طباطبا :عيار الشعر ص ٨٤

(١١٧) المرزباني :الموشح ص ٣٧٤ وأنظر: أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ص٤٣٤ ، ص٤٣٥

(١١٨) الموشح ص ٣٧٤

(١١٩) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز.تعليق: محمود محمد شاكر (القاهرة ١٩٨٩) ص ٤٤-٤٥

(١٢٠) السابق ص ٤٥

(١٢١) عبد القاهر دلائل الإعجاز ص ٤٥-٤٦

(١٢٢) السابق ص ٤٦-٤٧

(١٢٣) السابق نفسه ص ٤٧

(١٢٤) عبد القاهر دلائل الإعجاز ص ٤٧

(١٢٥) عبد القاهر الجرجاني :دلائل الإعجاز ص ٤٧



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(١٢٦) السابق ص ٤٨

(١٢٧) السابق نفسه ص ٤٨

(١٢٨) انظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج١ ص٧٢-٧٣، وابن طباطبا عيار الشعر ص ٨٤

(١٢٩) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة. تعليق: محمود محمد شاكر(القاهرة ١٩٩١) ص ٢١

(١٣٠) السابق ص ٢٢ فما بعدها

(١٣١) ابن الأثير : المثل السائر. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت ١٩٩٩) ص ٨٨



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# أهم المصادر والمراجع


**د. إحسان عباس :**

تاريخ النقد الأدبي عند العرب. ( بيروت١٩٨٦ )

**د. أحمد مطلوب :**

معجم المصطلحات البلاغية وتطورها. ( بيروت ١٩٩٦ )

**ابن الأثير ( ضياء الدين ) ت ٦٣٧ هـ :**

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. (بيروت ١٩٩٩ )

**د. بدوي طبانة :**

معجم البلاغة العربية. ( جدة والرياض ١٩٨٨ )

**د. تمام حسان :**

اللغة العربية معناها ومبناها ( القاهرة ١٩٧٣ )

**الثعالبي ( أبو منصور عبد الملك بن محمد ) ت ٤٢٩ هـ**

يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. ( بيروت د. ت )

**الجاحظ ( أبو عثمان عمرو بن بحر ) ت ٢٥٥ هـ**

- البيان والتبيين . تحقيق عبد السلام هارون ( القاهرة ١٩٧٥ )
- الحيوان. تحقيق عبد السلام هارون ( القاهرة ١٩٣٨ )

**الجرجاني ( عبد القاهر بن عبد الرحمن ) ت ٤٧١ هـ**

- دلائل الإعجاز. قراءة وتعليق محمود محمد شاكر ( القاهرة ١٩٨٩ )
- أسرار البلاغة . قراءة وتعليق محمود محمد شاكر ( القاهرة ١٩٩١ )

**الجرجاني ( علي بن عبد العزيز ) ت ٣٩٢ هـ**

الوساطة بين المتنبي وخصومه . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي (القاهرة د. ت )




الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

**ابن رشيق ( الحسن ) : ت ٤٦٣ هـ**

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ( بيروت ١٩٧٢ )

**السكاكي ( أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر ) ت ٦٢٦ هـ**

مفتاح العلوم . ( القاهرة ١٩٣٧ )

**ابن طباطبا : ( محمد بن أحمد ) ت ٣٢٢ هـ**

عيار الشعر. تحقيق د. طه الحاجري ومحمد زغلول سلام . ( القاهرة ١٩٥٦ )

**العسكري ( أبو هلال الحسن بن عبد الله )**

كتاب الصناعتين . تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ( بيروت ١٩٨٦ )

**ابن قتيبة ( أبو محمد عبد الله بن مسلم ) ت ٢٧٦ هـ**

الشعر والشعراء . تحقيق أحمد محمد شاكر ( القاهرة ١٩٧٧ )

**د. كمال بشر :**

- علم اللغة الاجتماعي – المدخل ( القاهرة ١٩٩٥ )
- فن الكلام . ( القاهرة ٢٠٠٣ )

**المرزباني ( أبو عبد الله محمد بن عمران ) ت ٣٨٤ هـ**

الموشح . مآخذ العلماء على الشعراء . تحقيق علي محمد البجاوي ( القاهرة د. ت. )

Halliday, M.A.K & Hassan, R.(1990) : Language in Social-Semiotic Perspective. Oxford GF



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner